الفصل الثاني

ما يجوز من الغضب:

* الغضب والشدة لأمر الله.
* الغضب إذا انتهكت حرمات الله.
* الغضب والانتصار لدين الله.
* الغضب والحمية للغيرة.

يتخللها موضوعات أخرى:

* غضبة لله.
* العبث بالقرآن.
* القرآن إعجاز العصر.
* سفينة نوح خرافة!!.
* ولنا حق الغضب.
* المحاربون من أهل الكفر والردة.
* يوم الغضب الأعظم.
* دعوة غضب لله تعالى.
* حديث الإفك.
* لا عصبية في الإسلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

ما يجوز من الغضب

أشرنا إلى أن فقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي قالت فيه الحكمة: «خير الأمور أوسطها»، وأما ما يجوز منه فهو:

أولاً ـ الغضب والشدة لأمر الله تعالى

قال تعالى: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ جاهد الْكُفَّار والْمُنافقين واغْلُظْ علَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣)، ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾: بالسيف والسلاح، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: في القول، وهذا أمر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر، ثم أقام على إظهاره، فأما من اطلع عليه منهم أنه تكلم بها، فأخذ بها

obeikandl.com

فأنكرها ورجع عنها، وقال: إني مسلم، فحكم الله تعالى في كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن ذلك دمه وماله.

وعن أبي مسعود عقبة بن عامر البدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذٍ، فقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟، فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبَّ رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى؟!!»، ثم قام فخطب، ثم قال: «إنما

(١) متفق عليه.

أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[(١)].

وعنها رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة بقرام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وتلون وجهه، وقال: «يا عائشة: إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»[(٢)].

ـ (السهوة): كالصُّفَّة تكون بين يدي البيت.

ـ (قرام): ستر رقيق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده؟»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ خاتمك انتفع به، فقال: لا والله لا آخذه أبدًا، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١)، (٢) متفق عليهما.

obeikandl.com

وعن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن اللقطة فقال: «عرِّفها سنة ثم اعرف وكاءها وعفاصها، ثم استنفِق بها فإن جاء ربها فأدها إليه»، قال: يا رسول الله فضالَّة الغنم؟ قال: «خذها فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب»، قال: يا رسول الله فضالة الإبل؟، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه أو احمر وجهه، ثم قال: «ما لك ولها؟! معها حذاؤها وسقاؤها حتى يلقاها ربها»، قوله: «ثم استنفِق» بكسر الفاء وجزم القاف: أي استمتع بها وتصرف فيها.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: احْتَجَرَ رسول الله ﷺ حُجَيْرَةً مُخصَّفَة أو حصيرًا، فخرج رسول الله ﷺ يصلي فيها فتتبع إليه رجال وجاءوا يصلون بصلاته ثم جاءوا ليلة فحضروا وأبطأ رسول الله ﷺ عنهم فلم يخرج إليهم، فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب، فخرج

إليهم مغضبًا فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة».

- قوله: «حجيرة» أى: موضعًا من المسجد يستره ليصلي فيه ولا يمر عليه أحد.

- قوله: «مخصفة»: متخذة من سعف.

- قوله: «وحصبوا الباب» أي: رموا الباب بالحصباء وهي الحصا الصغيرة تنبيهًا لظنهم له أنه نسى.

- قوله: «مغضبًا» أي: لكونهم اجتمعوا بغير أمره، وإشفاقًا عليهم لئلا تفرض عليهم.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، وقد قال

تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة: ٥٤).

obeikandl.com

غضبة لله

حول بيان الشيخ الشعراوي ضد كل من: توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكي نجيب محمود، وتعليق على ادعائات توفيق الحكيم في حديثه مع الله.

ففي يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة الموافق ١٧ مارس سنة ١٩٨٣م، نشر فضيلة الشيخ الشعراوي بيانًا في جريدة (اللواء الإسلامي) في صفحتها الأولى هذا نصه: «ما يكتبه توفيق الحكيم ضلال وإضلال، لقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يفارق هذا الكاتب الدنيا إلا بعد أن يكشف للناس ما يخفيه من أفكار وعقائد كان يتحدث بها همسًا ولا يجرؤ على نشرها، ولقد شاء الله ألا تنتهي حياته إلا بعد أن يضيع كل خير عمله في الدنيا، حتى يلقى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بلا رصيد إيماني.

إنني أطالب ـ كما يتم عقد ندوات في التليفزيون لمناقشة الذين ينشرون أفكارًا خاطئة عن هذا الدين ـ بأن

تعقد ندوة ينقلها التليفزيون المصري ويحضرها الناس، وأطلب أن يحضر هذه الندوة كل من: توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكي نجيب محمود، وأحضرها أنا وحدي لأكشف هؤلاء الناس للمسلمين في العالم أجمع، وأرد عليهم، وأترك الحكم لجموع المسلمين، كما أكشف وسائل الإعلام التي تقوم بنشر هذا الكلام لهم، وإنني أتحدى أن تعقد مثل هذه الندوة وأنا مستعد لها في هذه اللحظة، إذا كان هناك ما يسمونه فكرًا لهم فكل كلامهم خارج عن هذا الدين وكله مردود عليه.

وأنا أريد النقاش علنًا، ليعرف كل إنسان قدره، ولا يصبح دين الله نهبًا مباحًا لكل من يريد أن يتعدى على مقدساته ويشوهه أمام الناس، إن ما يقوم به هؤلاء الثلاثة لا يمت إلى الحق بصلة، ولا إلى الفكر الإسلامي الصحيح، وما يكتبونه هو قضية تحمل الضلال والإضلال، وإن كان لديهم ذرة حق فليأتوا ولنتناقش أمام الناس جميعًا، وإني في انتظارهم» اهـ.

يقول الأستاذ محمد خالد ثابت: وكانت هذه غضبة شديدة لم يعهدها الناس في الشيخ الوقور الذي تغلب عليه أخلاق الناسكين، الأدب الجم، والحلم وسعة الصدر.

وعلى أية حال فإن الندوة لم تتم، فقد فرَّ الثلاثة من مواجهة الشيخ الغاضب وكان منتهى ما تم ـ في هذا الأمر ـ من أشكال الحوار هو ذلك اللقاء الذي دبرته جريدة «اللواء الإسلامي» بين توفيق الحكيم وعدد من علماء الدين، وكذلك ما نشرته نفس الجريدة من تعليقات للشيخ الشعراوي على مقالات الحكيم، وعلى ما يدور في لقائه مع علماء الدين.

وأما الدكتور يوسف إدريس، والدكتور زكي نجيب محمود، فقد آثرا الابتعاد قدر الإمكان عن منطقة الحوار العقلي مع الشيخ، وأخذا يقذفانه بالحجارة من بعيد، وأثارا ضده حربًا شخصية على صفحات الجرائد والمجلات.

وقد لفت بيان الشيخ الشعراوي الأنظار إلى ما يكتبه توفيق الحكيم في هذه الفترة في جريدة الأهرام تحت عنوان (حديث مع الله) ادعى فيه أنه أجرى حواراً مع الله ـ أو خُيِّل له ـ وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال له: قل على لساني ما تشاء وأنت تعلم أولاً أنه ليس لي لسان مثلكم ولكن انسب وتخيل وألِّف.

وكان مما قاله له هذه الأديب مخاطبًا الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: إن شهادة أن لا إله إلا أنت ليست ضرورية، وأن النبي الذي أرسلت وقلت لنا إنه خاتم الرسل، وأمرتنا بطاعته، وأخبرتنا بأن طاعته من طاعتك قد مضى زمنه ولا حاجة بنا إليه، وأن الكتاب الذي أنزلت وأمرتنا أن نعمل به وأن نتمسك بما فيه حتى الرمق الأخير، وأخبرتنا أنك ستحاسبنا طبقًا لما جاء فيه، لم يعد صالحًا لنا في عصرنا الحديث، وإنما يقنعنا أكثر من العلم الحديث الذي يتخذه أعداء دينك منهجًا لحياتهم، وإلهًا من دونك، وأن رجال دينك

والمدافعين عن رسالتك يجب أن يكونوا من أمثال «آينشتين، وكاستلر»، وغيرهم من الملحدين، وليس ممن وصفتهم في قرآنك بقولك: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

ذلك المجترئ على الله، ماذا أبقى لنفسه ليوم يقف فيه بين يدي ربه يحاسبه حسابًا ليس بيسير؟!

وقد رد على الإدعاء الماجن لتوفيق الحكيم كثير من العلماء والغيورين على الدين، فقال فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل في (جريدة النور ـ ٣٠/ ٣/ ١٩٨٣م): «أما أن يكون حديثك يا أستاذ توفيق مع الله ذي الجلال والإكرام على هذا النحو الذي سقته في حديثك فإن هذا ليس دعاء وليس عبادة وليس ضراعة وليس شكرًا، ولكن حديث إحدى الكبر، إنك رجل تحدث نفسك، تضع نفسك مرة موضع المخلوق، ومرة أخرى موضع الخالق، وتجيب

وتقول: إنني أجيب عنك افتراضًا، والنبي ﷺ يقول عنه ربه: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين﴾ (الحاقة: ٤٤)، والوتين: عرق في الرقبة، إذا قطع مات الإنسان لتوِّه.

ولقد سُئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، وعن الروح، فلم يستطع أن يقول بغير الوحي، وما أسند إلى الله - عزَّ وجَلَّ - قولاً لم يتنزل به وحي» اهـ.

وتحت عنوان (أدب الحديث عن الله) كتب فضيلة الشيخ محمد أحمد المسيرفي في جريدة (اللواء الإسلامي) الصادرة بتاريخ (١٠/٣/١٩٨٣م): هل نتحدث مع الله أم نتحدث عن الله؟! .. سؤال أطرحه على الأستاذ توفيق الحكيم بمناسبة حديث الثلاثاء (١/٣/١٩٨٣م)، إن التحدث مع الله تعالى لا يكون إلا لنبي أو رسول، وقد قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو

من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ﴾ (الشورى: ٥١).

ومع اعتراف الحكيم بذلك فإنه يصر على التحدث مع الله، ويسمح لنفسه أن يقيم حواراً مع جنابه العالي، ويسوق عبارات أقل وصف لها أنها جانبت التوفيق والحكمة وصدرت عن وعي مفقود، فإذا كان الحكيم قد استنطق عصاه وحماره، وجعل نفسه مفاوضًا عربيًا مع الإرهابي الصهيوني «بيجن»، فمن غير المعقول أن يستنطق الذات الإلهية هراءً وعبثًا وتضليلاً، بل من غريب الأمر أن الحكيم حرص فيما نسبه إلى بيجن أن يعتمد على تصريحات أذاعها بيجن أو خطب ألقاها أو كلمات كتبها حتى لا ينسب إليه ما لم يقله.

إننا ـ نحن المسلمين ـ نفاخر الدنيا كلها بما حبانا الله به من الإسناد في النقل والدقة في الرواية، والصدق في التحقيق حتى سلم لنا القرآن المجيد، فهو النص الديني الأوحد في العالم الذي يقرأ بالنص الإلهي الأول بلا

تحريف أو تزييد أو تبديل، حتى حديث رسول الله ﷺ قد اصطنع له المسلمون علومًا شتى تخدمه، فاهتموا برواة الحديث عدالةً وضبطًا، وميزوا بين طبقات الرواة، وحققوا الأسانيد اتصالاً وانقطاعًا، وقارنوا بين الأحاديث، ونظروا في كيفية الرواية هل هي قراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، كل ذلك في براعة نادرة، واجتهاد مخلص، وتحقيق علمي فذ، فأين نحن اليوم مما يغتر به الحكيم في مثل قوله: وفجأة حدث العجب، حدث ما كاد يجعلني يغشى عليَّ دهشة، فقد سمعت ردًا من الله. .إلخ، إن هذا الشكل من الحديث جرأة على الله، واهدار للمقدسات، واعتداء على شرف الكلمة، وضياع لمعالم الحق، وتدليس شنيع.

وقال فضيلة الشيخ الشعراوي: «الأستاذ توفيق الحكيم لم يقل لنا كيف كلمه الله؟ هكذا مواجهةً، أم أرسل إليه ملكًا، أم ماذا حدث؟ وما هي الكيفية التي تم بها الحديث؟، فإذا كان الحديث من الله تخيلاً، إن الله يقول، فكأن الأستاذ توفيق الحكيم قد قيد مرادات الله بمراداته، أي

أنه قد قيد إرادة الله بإرادته هو، فما يريده عقل توفيق الحكيم يقوله الله ـ سبحانه وتعالى ـ في مقالاته وما لا يريده لا يقوله!!، وتقييد إرادة الله بإرادة البشر هو خطأ ثان ارتكبه الأستاذ توفيق الحكيم، وأعتقد أنه خطأ جسيم لابد أن يعتذر ويستغفر الله.

وكل من يجترئ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن ينقل عنه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ما لم يقله موعود بالويل، فما بالك بمن قيد إرادة الله بإرادته، يجعل الله يتكلم متى شاء توفيق الحكيم، ويجعل الله يسكت متى شاء توفيق الحكيم أن يسكت الله، ويجعل الله يحكم عباراته وكلماته عقل توفيق الحكيم وفكره، وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لرسوله ﷺ وأحب خلقه إليه: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾، إذا كان هذا حديثه مع رسوله، أيبيح الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتوفيق الحكيم ما لم يبح لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟. اهـ.

(اللواء الإسلامي: ١٠/ ٣)

العبث بالقرآن

وكتب الأستاذ أحمد بهجت في بابه اليومي في جريدة الأهرام منبهًا إلى أن هذا الحوار مما لا يجوز، ومعلقًا على كثير من النقاط فيه، وكتب آخرون في مجلات وجرائد أخرى، لكن الكاتب لم يستجب، إلا أن الجريدة قد قامت بعمل بعض التغيرات على الشكل الخارجي للمقالة فغيرت العنوان من «حديث مع الله»، إلى: «حديث إلى الله»، وأزالت من صورة الكاتب الكاريكاتورية السحابة والكتب من تحت قدميه، وفي الحوار بينه وبين ربه وضعت ثلاث نقط بدلاً من لفظ الجلالة، كلما جاء دوره في الحوار!!

وهذا هو الأسلوب الذي تتعامل به جريدة الأهرام مع قرائها، كمن يقدم لك السم في زجاجته، فإذا ما عافته نفسك، صبه في كوب وأعاد تقديمه إليك!.

«اسمح لي أن أسأل: أكان من الضروري أن تنزل هذه الأديان والكتب الثلاثة؟!»، بهذا السؤال يستأنف الكاتب

حديثه إلى ربه، ويستأنف رحلته على نفس الطريق، فيقول مخاطبًا ربه: ولكنها قدرتك ومعجزتك يا ربي أن تختار دينًا راقيًا كالإسلام، لينزل في صحراء قاحلة، وقوم بدائيين، وكان لابد لحكمتك من أن تخاطبهم أحيانًا على قدر عقولهم، وكان أرقى ما اشتغلوا به وقتئذٍ هو التجارة، فاستخدمت في جذبهم إلى دينك الجديد عبارات مغرية لهم مثل: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠)، و﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (التغابن: ١٧).

إنه يظن أن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في حاجة إلى عباده فيقول إنما هناك آيات في القرآن أنزلها الله خصيصًا ليغري بها البدو البدائيين لكي يؤمنوا بدينه الجديد!، وهو يريد أن يقول صراحةً: والآن وقد آمن البدو، أو بعد أن تحولت المجتمعات البدوية إلى حضرية، فهل تكون لهذه الآيات حاجة بعد؟، كأنه يقترح أن نتغاضى عن مثل هذه الآيات أو أن تحذف من القرآن!!، ولقد ساق على سبيل المثال

نموذجين من الآيات القرآنية الكريمة هما من صميم العقيدة الإسلامية، ماذا يكون رأي الكاتب في الآيات الأخرى في الحدود والمعاملات؟.

ولقد أفصح توفيق الحكيم عن رأيه هذا مرة أخرى في ندوة «اللواء الإسلامي» بقوله عن الصلاة: أما فيما يختص بعلاقة الدين بالمجتمعات، فأنا أعتقد أنه لا تناقض فالدين ـ وخصوصًا الإسلام ـ يريد أن يرقى بالناس .. أي: يعلمهم .. والنبي كان معلمًا لمجتمعه، حين قال لهم الصلاة خمس مرات في اليوم، لأنهم لم يكونوا يلتزمون بالماء، فعلمهم النظافة، لأن النظافة من الإيمان.

* وقال فضيلة الشيخ الشعراوي في معرض تعليقه على هذه الآراء: وقبل أن أختم كلامي أحب أن أقول: إن الأستاذ توفيق الحكيم قد ارتكب خطئين رئيسيين: أولهما ـ أنه قال إن الصلاة قد فرضت لأن العرب كانوا لا يستحمون، وهذا كلام يؤسفني أن أقول إنه كلام إنسان لم

يقرأ في الديـن، فالصلاة هي عـبادة لله فـرضت من فوق سـبع سمـوات، ومن يقول إنهـا نظافة أو رياضـة، أو أي شيء آخر، خرج بها عن مفهـومها العبادي، وبذلك أصبح الإنسان الذي يستحم كل يوم مـعفي من الصلاة، والإنسان الذي يمارس الرياضة مـعفي من الصـلاة!!، وكلاهما غـير صحـيح، كما يقال: أن الصـيام قد فرض ليـحس الإنسان بشعور الجـائع!، هذا كلام يُسقط الصيـام عن الجائع، لأنه يعرف هذا الشعور فـعلاً ويعيشه، وليس محـتاجًا للصوم، ولكن هذه العبادات كلها إنما فرضت ليتقرب بها الناس إلى الله ويعبدوه، ومـادام الله هو المعبود كما قلنا، فـهو وحده الذي يحدد الطريقة التي يعبد بهـا ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا قال الله إذا أردت أن تعبدني فافعل كذا في الصلاة والصوم وغيرهما فأنا عندما أفعل ذلك أفعله تقربًا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والحكمة الوحيـدة هنا أن الله أمرني أن أفعل فلا نعلق العبادات بأي شيء آخر. (اللواء الإسلامي العدد: ٦٥)

هدم لغة القرآن

وبعد أن انتهى توفيق الحكيم من عرض نظريته، أو أجبر على أن ينهيها بسرعة بعد غضبة علماء الدين، يمضي في حوار طويل مع الله أيضًا، مليء بالذكريات الشخصية، ويركز فيه على عبد العزيز فهمي، فيتحدث عنه حديث إجلال وتقدير، فيقول: أما تاريخ مصر الفكري، فموقف عبد العزيز فهمي منه باق أيضًا لا يُنسى، فهو الذي ثار لحرية الفكر في قضية علي عبد الرازق وكتابه عن الإسلام وأصول الحكم، وقضية طه حسين وكتابه عن الشعر الجاهلي.

يقول الأستاذ محمد خالد ثابت: وهكذا نعرف سبب حب الكاتب وإكباره للمغفور له عبد العزيز باشا فهمي، وهو دفاعه عن كتابين أسهما إسهامًا لا يستهان به في زلزلة عقيدة الإسلام في الأمة، وفي زيادة فرقة أبنائها، ولعل المجال لا يتسع الآن لمزيد من القول حول هذين الكتابين، لكني أحيل القارئ الكريم إلى كتاب «الإسلام والخلافة في

العصر الحديث»، للأستاذ محمد ضياء الدين الريس، ليعرف حقيقة كتاب الإسلام وأصول الحكم، وكذلك على مقدمة كتاب «المتنبي» للأستاذ الفاضل محمود محسن شاكر الذي يحكي فيه ذكرياته الشخصية مع الدكتور طه حسين وكتابه عن الأدب الجاهلي، ليرى كيف حرك الاستعمار الإنجليزي كاتبي الكتابين ـ عن غفلة منهما ـ ليقولا على لسانهما ما أملته إرادة الاستعمار ومطامعه.

وقد سُئل الزعيم سعد باشا زغلول عن رأيه في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟ فأجاب قائلاً: لقد قرأته بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولاً كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع؟، وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم، فما وجدت من طعن منهم في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق، لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته وإلا

فكيف يدعي أن الإسلام ليس مدنيًا، ولا هو بنظام يصلح للحكم؟، فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أو الهبة، أو أي نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئًا عن هذا في الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أممًا لا تزال تحكم بهذه القواعد، وهي آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنيًا ودين حكم؟! وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة، فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟.

لم يكن دفاع عبد العزيز فهمي عن كتابين مشبوهين هو وحده سر إعجاب توفيق الحكيم به، إنما يلهج بالثناء على عظمته ووطنيته وشجاعته .. إلخ، لأنه كان الداعية الأكبر، لوأد اللغة العربية في مصر إلى كتابتها بالحروف اللاتينية كما فعل كمال أتاتورك في بلده التي كانت دولة الخلافة الإسلامية فحولها بين ليلة وضحاها إلى مسخ شائه بين الدول ملقى على هامش أوربا، لا هو من الشرق ولا

هو من الغرب، ويتولى الكاتب وصف ذلك في حديثه مع الله فيقول عن اللغة العربية: رآها ـ أي عبد العزيز فهمي ـ كالعجوز المقيدة في خلاخيلها ودمالجها الحبيسة في حجرة من التقديس، لا يدخلها هواء الحياة ولا شمس العصر، خشية عليها من تقلب الجو، فنهض فارس الحرية وأراد أن يمد يده للنوافذ يفتحها لنسائم التجديد وهو يقول في ذلك: إن اللغة كائن كالكائنات الحية ينمو ويهرم ويموت.

إيمان عبد العزيز بالتطور أي التجديد ـ وهو شيخ في الثمانين ـ يدل على أنه كان رجلاً عظيمًا حقًا، وعندما أقول إنه عظيم لا أعني المعنى المبتذل، بل أعني المعنى العميق للكلمة، ذلك أن من صفات العظمة شباب التفكير، أي: الإحساس بالتجديد، أي: مقابلة الزمن، أي: سبق العصر، كل العظماء بلا استثناء كانوا مجددين أي سابقين لعصورهم، مغالبين للزمن والهرم والجمود، لأن عظمة الإنسان هي في الانتصار على الزمن، وخير

مظهر للانتصار على الزمن هو شباب الفكر الدائم وتطور التفكير المستمر.

ويسوق الكاتب الأدلة على وهن اللغة العربية والصعوبات الجمة التي تعوقها عن الانتشار!!، ثم يقول: ولكن عبد العزيز فهمي أراد أن يحل العقدة بسيف شجاعته فقدم اقتراحه المشهور بترك الحروف العربية واتخاذ الحروف اللاتينية.

إن دفاع توفيق الحكيم عن دعوة صليبية تبناها الاستعمار الغربي المتسلط على دول الإسلام لهو شيء يبعث في النفس إحساسًا عميقًا بالمرارة، وشعورًا متملكًا بالغضب.

لقد زرع أعداؤنا هذه الدعوة وظل يتعهدها ويذب عنها صنائعهم من أمثال سلامة موسى، وعبد العزيز فهمي، وغيرهم، وإن التاريخ ليحفظ لنا محاولات، الإنجليز للنيل من لغة القرآن منذ اليوم الأول لوجودهم في مصر حصن

الإسلام وبلد الأزهر، وإن محاولات (ولكوكس)، والقاضي (ولمور)، وغيرهم للقضاء على تلك اللغة لا تزال مسطورة على صفحات الكتب والجرائد والمجلات، وللقارئ الذي يرغب في الاستزادة في هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب الباحثة الفاضلة الأستاذة: نفوسة زكريا سعيد (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) ليعرف أي منزلق يراد بنا بدعوات تجديد وتطوير وتحرير اللغة التي يحلو لبعض صغار النفوس ترديدها جهلاً واتباعًا وتقليدًا.

لم يكن حديث توفيق الحكيم السهم الأول المصوب إلى كبد الإسلام ليهدمه، ولا هو بالسهم الأخير، فإن كل يوم جديد يخرج فيه علينا واحد من دعاة الإصلاح والتجديد ليقدم إلينا السم في كأس الدواء، ولو كان الهجوم على الإسلام يأتي من جانب المستشرقين وحدهم لهان الخطب، فهم أعداء ظاهرون، وهم رأس الحربة التي اقتحمت بها الصليبية الغربية ديار الإسلام، فمزقتها

وانتهكت حرماتها، ولكن ما بال هؤلاء الكتَّاب من المسلمين، يرددون القرآن والحديث، ويعملون أقلامهم معاول للهدم والخراب ويقسمون إن أرادوا إلا إصلاحًا.

لقد استزرع الاستعمار لنفسه في تربتنا رجالاً يخدمونه ويدعون بدعوته فقدمهم على غيرهم، ووضعهم في الصدارة من كل موقع، في وقت كان هو المسيطر على كل صغيرة وكبيرة في البلاد، ومما يؤسف له أن ذلك الاستعمار لم يغادر بلادنا إلا بعد أن خلف وراءه في صفوفنا جنودًا له من أنفسنا يتثقفون بثقافته، ويتزيون بزيه، ويتجمعون تحت راياته، ويدافعون عن قضاياه وأطماعه بحماس شديد، وسواء كان ذلك منهم عن غفلة أو عن هوى أعمى أو عن طبيعة خانعة مستكينة للأقوى فإن النتيجة دائمًا وخيمة، مزيد من الهوان ومن ضياع الحقوق والأوطان.

الحكيم في الميزان

عن أسباب تأخر المسلمين يجيب الأمير شكيب أرسلان برسالة مطولة، من ضمن ما جاء فيها، ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص، والذي هو أشد خطرًا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدًا عالمًا أطاعه، ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون، وأقول ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم، وهو ما نراه مناسبًا للرد على شطحات الأدباء والفلاسفة وكل من يتجنَّى بتخاريف علمه الناقص على الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ أو على كتبه أو رسله.

القرآن إعجاز العصر

وبخصوص ما ادعاه بأن «العلم إله العصر» فنراه قد فوت على نفسه وبعلمه الناقص التحري عن الحقيقة

للوصول إلى شاطئ الأمان، وليأخذ من دنياه تذكرة النجاة في الآخرة، فمعجزات الإسلام والتي لم يقرأ عنها شيئًا ـ متمثلة في القرآن والسنة ـ قد سبقت علم العصر في كثير من المجالات، ومازال إعجاز الاستمرارية في ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ (فصلت:٥٣) باقيًا إلى قيام الساعة في معنى قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ (فصلت:٥٣)، أي: سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًا منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ، وعلى أنه سابق لما توصلوا إليه من علم، والحجة على ذلك بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾، منها اكتشاف الغطاء الجوي المحيط بالأرض وحمايته للكائنات من الأشعة فوق البنفسجية، والتي إن نفذت من خلاله أفنت كل حي، ولكنها رحمة الله تعالى التي يتحققت في معنى قوله تعالى: ﴿وجعلنا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ (الأنبياء:٣٢)، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾، منها اكتشاف الأغشية المحبطة بالجنين وهو في بطن أمه، وقد سبق القرآن

بالتنويه عنها بقوله تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ (الزمر:٦)، أي: قدركم في بطون أمهاتكم، يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مُضغة، ثم يخلق فيكون لحمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر، ﴿في ظُلُمات ثلاث﴾، يعني: في ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن.

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر الله. وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس. وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[1].

---

(١) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1].

السُّلامى: أي: أعضاء الإنسان والتي ذكرت في حديث عائشة أنها ثلاثمائة وستون عضواً ـ أو مفصلاً ـ على كل منها صدقة كل يوم، وجاء في الحديث أن ركعتين من الضحى تقوم مقام ذلك.

منذ بضع سنوات توقف علم الطب عند عدد للمفاصل يقل عما ذكره الحديث الشريف، وقبل بداية

(١) رواه البخاري ومسلم.

obeikandl.com

الألفية الثالثة الميلادية اكتشف طبيب مسلم عدداً من المفاصل في عظام الجمجمة لم تُكتشف من قبل، بها أُكملت عدد مفاصل جسم الإنسان الموجودة في الحديث، فإذا قدرنا للعلم مكانة فلا تصل إلى درجة أن يحل محل الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ، كما أن سبق علوم القرآن والسنة يجعلها أعلى مكانة من علوم العصر، وأسرار القرآن ومعجزات الرسول ﷺ خير دليل على ذلك.

ولعل توفيق الحكيم في آرائه هذه متأثر بالأفكار التي يرددها نجيب محفوظ في رواياته تحت ستار الرمز منذ أمد بعيد، والتي كانت أصرح ما يكون في روايته (أولاد حارتنا)، التي نشرت سنة ١٩٥٩، وهلل لها أعداء الإسلام أخيراً وكافأوه عليها بجائزة عالمية هي في الأصل يهودية، فهو ممن يقولون بأن تاريخ الإنسانية مراحل وأن الدين مرحلة فيها، وأن الديانات أيضًا مراحل في حياة البشر

انتهت أخيـراً إلى العصر الحديث، حـيث تمت الغلبة للعلم الذي نجح في إقصاء الله عن حياة البشر، وأن الله نفسه قد قرر اعـتزال حياتهم وتركـهم لشأنهم يدبرون أمورهم كـما يتراءى لهم!!.

﴿ كَـبُـرَتْ كَلِمَـةً تَخْـرُجُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ إِن يَقُـولُونَ إِلاَّ كَـذِبًا ﴾ (الكهف: ٥)، ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠).

Obeikandl.com

العلم الحديث يقول:
سفينة نوح قصة خرافية

خلال دراستنا الجامعية في السبعينات، تباحثنا في كتاب في الرياضيات لمؤلف روسي الجنسية، وقد احتوت صفحاته على معلومات تبهرنا في مادة تخصصنا، إلا أن تلك الصفحات طوت بين جنباتها سُمًا لاذعًا، ذو تأثير قوي لكل من يقف على أرض رخوة، أما أصحاب العقيدة الثابتة فهم القادرون بتوفيق الله على تمييز السم من باطن العسل، وقد تناثرت قطرات هذا السم على عدة موضوعات لتخدع مزعزعي العقيدة، وكل مصاب بالخواء الفكري، فإن لم تقنعه بفكرها فهي على الأقل ستضعه في دائرة الشك، وحينما يقف حائرًا تائهًا تتلقفه الأيدي الملحدة، ومن هذه الموضوعات أرقام وحسابات تكونت في شكل مقنع لوضع سفينة نوح في سحارة التخاريف،

obeikandl.com

فباستخدام أرقام الحجوم والمساحات وضعوا العدد المناسب لارتفاع مياه الفيضان الذي غطى الأرض حينذاك، وهذا الارتفاع للمياه والذي وصف كالجبال لا يُمكِّنْ أي سفينة مهما كان حجمها أن تبحر في أمان!!.

وفي الجزء الأول من كتاب (أطلس الظواهر الغامضة) لعالم الآثار البريطاني «فرانسيس هتشنج» يشير إلى أنه لم يدر بخلد أي عالم أن يشك في صحة رواية التوراة عن ذلك الطوفان، فكانوا يقولون أن ملايين المستحاثات البحرية الموجودة في طبقات الأرض المختلفة تثبت صحة وجود الطوفان التوراتي.

ثم يقول: ولكن ولأسباب سياسية ـ فضلاً عن الأسباب العلمية ـ ظهرت نظرية (وحدة الكون) الحديثة التي تتحدى المذهب التوراتي هذا، فإذا كانت أقوال التوراة صحيحة فليس هنالك من طريقة سلمية لتحدي الملكية في

بريطانيا، لأنهم يعتبرون أن حق الملكية هو حق إلهي وقد نزل من الإله رأسًا للملك، ولكن إذا ظهر أن التوراة غير دقيقة وخصوصًا بالنسبة للطوفان، عندها يتحطم الأساس الفلسفي الذي يرتكز عليه حق المُلك الإلهي، وهذا هو رأي جماعة من المحافظين الإنكليز من حزب (الويج) ومن أعضاء البرلمان البريطاني، وقد ألف أحدهم وهو «تشارلز ليل» في عام ١٨٣٠ كتابًا دعاه: (مبادئ الچولوجيا) وفي مقدمة هذا الكتاب التي تبلغ مئة صفحة، ناقش هذا المؤلف بذكاء قصة الطوفان، واستنتج أن هذا الطوفان ما هو إلا قصة رمزية أسطورية. اهـ.

تعليق:

مما لاشك فيه أنه لم ولَنْ يوجد من يشكك في القرآن أو يضارعه الحجة ونحمد الله أن جعلنا نؤمن بوحدانيته وقدرته على أن يقول للشيء كن فيكون.

ولنا حق الغضب:

فن النفاق في الإعلام الموجه

نود أن نشير إلى أن مثل هذه الآراء والتي تخرج من أفوهٍ لمسلمين أو غير مسلمين وفي شكل هجوم مباشر أو غير مباشر على الإسلام، لتعود بالنفع على العامة، فحينها تخرج أسلحة الدفاع الإسلامية من أفواه وبأقلام علماء الإسلام بحجج وبراهين، وأدلة، وبهذا السيجال والمد والجزر، وبهذه المراوغة الفكرية بين حق وباطل، وبهذه المجاهدة تلتف أفئدة المسلمين حول مباراة يتمتع ملتمسوها بنشوة الترقب لانتصار الحق، وفيها علوم تحيا، وتجلى أخرى ليتذكر أولو الألباب.

وما يثير الغضب هو موقف الصحافة الرسمية ـ والتي تمتلك فن التأثير على الناس ـ فهي لا تتوخى الحقيقة ولا تهتم بالمنطق ولا حتى بحسن المظهر أمام القراء، وإنما كل همها هو تحقيق الغلبة ولو للباطل وبالباطل.

ولقد دافعت الصحافة الرسمية عن توفيق الحكيم دفاعًا حارًا دون أن تدافع عن أفكاره، وإنما تحدثت بحرارة عن أمور غيبية مثل حرية الفكر ضد قهر رجال الدين والحق الإلهي.. إلخ، وصورت كاتب هذه الأحاديث على أنه شهيد الإصلاح والفكر الحر، وصورت الشيخ الشعراوي كمن يقبض بيمناه على رقاب العباد ويمنح بيسراه صكوك الغفران!!، وكم من أكاذيب رأيناها بالتكرار والمثابرة على صفحات الجرائد تستقر في عقول العامة حقائق مؤكدة، من النماذج الدالة على ذلك والمتعلقة بقضيتنا هذه ما نشرته (جريدة الأهرام) حيث قالت: وإذا كان الحكيم في عمق تفكيره وفي صفاء إيمانه قد جسد الشموخ الفكري في مناجاته للذات العليا، وتعرض لما تعرضت له حرية الرأي التي كانت عماد الفلسفة الإسلامية في حركة التنوير، فإن الأهرام لن يسمح بأن يكون نافذة أو منبرًا لأي إرهاب فكري يدعي لنفسه حقًا إلهيًا، في مصادرة فكر أو تكفير صاحبه. (٢٩/ ٣/ ١٩٨٣)

وكذلك جاء في (جريدة أخبار اليوم) بتاريخ ١٩/ ٣:
قال الرجل الحكيم كلمته وتوكل على الله، قال الرجل كلمته وهو يعتقد أن عمره وماضيه يشفعان له عند هؤلاء الذين توقف تفكيرهم عند أيام الأمويين، كل ما كان يريده صاحبنا هو أن يستفسر عن أشياء ظلت أربعة عشر قرنًا بعد الهجرة غامضة على المؤمنين، واقترح الرجل حلولاً عسى الله أن يوفقنا في معرفة جزء آخر من أسرار خلقه ومعجزاته تجعلنا نزداد إيمانًا على إيمان بدلاً من هذه الظلمات فوق الظلمات التي يحاول البعض أن نظل غارقين فيها، ونصب الشيخ من نفسه قاضيًا في أمور الدين، وكأن السماء أعطته الحق في أن يقول لهذا: أنت كافر وضال، ويقول لذلك أنت من الأبرار، وهو شيء نعرف جميعًا أنه لله وحده جلَّ جلاله.

وقد علق الشيخ على هذه الثورة بقوله: لقد انفعل بعض أصحاب الأقلام لتوفيق الحكيم وأرادوا أن يدافعوا

عنه، لا عن حجة تلزم من يقرؤها ولكن عن عاطفة تأبى أن تدخل في أمور من صميم العقيدة.

(اللواء الإسلامي ـ العدد: ٦١)

وكان على هؤلاء الذين يدافعون عن توفيق الحكيم أن يغاروا عليه حين يلقى ربه فيجنبوه أهوال ذلك اليوم بالنصيحة وبالحكمة بدلاً من أن يزينوا له طريقًا لا يُرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا نملك سوى أن ندعو لهم بالهداية ليسخروا أقلامهم في خدمة الإسلام.

ثانيًا ـ الغضب إذا انتهكت حرمات الله

قال تعالى: ﴿ ومن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (الحج: ٣٠)، أي: يجتنب ما أمره الله باجتنابه تعظيمًا لحدود الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والمعنى من يجتنب محارم الله ومعاصيه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة، ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى»[١]. وعنها رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرها ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»[٢].

وعن نافع عن عبد الله رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يصلي رأى في قبلة المسجد نخامة فحكَّها بيده فتغيظ ثم قال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإن الله حيال وجهه فلا يَتَنَخَّمَنَّ حيال وجهه في الصلاة»[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

وروى ابن هشام عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها[1]، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغُ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ـ وكان يهوديًا ـ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحاصرهم رسول الله ﷺ مدة من الزمن، حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبي بن سلول، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، فلم يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وكرر ثانية فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأدخل يده في جيب

(١) هو ما يجلب إلى السوق للبيع.

درعه ﷺ فقال له: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال له: «ويحك أرسلني»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال له رسول الله ﷺ: «هم لك»، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم فيها.

المحاربون من أهل الكفر والرِّدَّة

قال أبو قلابة: هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

المحاربة هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، والآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات.

روى البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رهط من عكل على النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في الصُّفَّة فاجتووا المدينة، فقالوا: يا رسول الله أبغنا رِسْلاً، فقال: «ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ» ، فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحّوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الزود، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم الصريخ، فبعث الطلب في آثارهم فما ترجَّل النهار حتى أُتي بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سُقوا حتى ماتوا[1].

(١) لفظ البخاري.

قال أبو قلابة: سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله.

ـ قوله: «فاجتووا المدينة»: أي كرهوا الإقامة بها لما أصابهم من الجوى، وهو داء في الجوف إذا تطاول قُتل، حتى سقمت أجسامهم.

ـ قوله: «ولم يحسمهم حتى ماتوا»: أي: لم يكن موضع القطع لينقطع الدم، بل تركهم حتى ماتوا.

ـ قوله: «رسلاً»: أي: لبنًا.

ـ قوله: «فما ترجل النهار»: من الترجل وهو الارتفاع.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾، قال: فإمام المسلمين بالخيار إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع يده ورجله، وسند هذا أنه ظاهر ﴿أَوْ﴾ للتخيير، وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال ـ كما قال عبد الله الشافعي ـ إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا فعلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم

وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٤)، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة.

قصة عكل وعُرينة:

عن قتادة أن أنسًا ﷺ حدثهم أن ناسًا من عُكل وعُرينة قدموا المدينة على النبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ

النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، قال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى على المُثْلَةِ (أي: قطع الأطراف).

- قوله: «بذود»: من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة.
- قوله: «راع»: اسمه يسار النوبي.
- قوله: «فسمروا أعينهم» أى: كحلت بالمسامير المحمية.

ثالثًا - الغضب والانتصار لدين الله تعالى

قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد:٧)، كقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ (الحج: ٤٠)؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾، كما جاء في الحديث: «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة»

وفي عهد الخليفة العباسي المعتصم، ترامت الأنباء إلى سمعه أن ملك الروم أسر امرأة مسلمة، فأرسل إليه إنذارًا قال فيه: «من المعتصم خليفة المسلمين إلى كلب الروم. أما بعد . . إذا وصلك كتابي هذا فأطلق سراحها، وإلا فوالذي بعث محمدًا بالحق لو لم تطلق سراحها لأجردنَّ لك جيشًا أوله عندك وآخره عندي»، يقول المؤرخون: لما وقع الإنذار في يد ملك الروم، ارتعدت أعصابه ونادى على جنوده، وقال لهم: سلحوا بعض النساء من نساء الروم وأرسلوا السيدة المسلمة في حراسة النساء معززة مكرمة إلى خليفة المسلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهلهِ شيئًا[1].

(١) رواه ابن جرير.

ـ قوله «من أحب في الله»: أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

ـ قوله: «وأبغض في الله» أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)، ﴿يُوَادُّونَ﴾: يحبون ويوالون، ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: من عادى الله ورسوله.

ـ قوله «ووالى في الله»: هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره.

* وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد،

ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه، فمقلّ ومستكثر ومحروم.

ـ قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»: أي: توليه لعبده.

ولأحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله، فقد استحق الولاية لله»، وفي حديث آخر: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ـ عَزَّ وجَلَ ـ»[(١)].

ـ قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان ...» إلى آخره، أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، أي: حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي في الله.

* وفي حديث أبي أمامة مرفوعًا: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني. (٢) رواه أبوداود.

obeikandl.com

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»: أي: لا ينفعهم بل يضرهم، كما قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧)، أي: المتصادقون على معاصي الله في الدنيا، والمعنى: كل صداقة عداوة يوم تقوم الساعة إلا صداقة المتقين لله تعالى.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضًا على نفسه، محبة في الله، وتقربًا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد رأيتنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم[1].

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن أحد أولاده اتخذ خاتمًا واشترى له فصًا بألف درهم فكتب إليه: أما بعد، فقد

(١) رواه ابن ماجه.

بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه وأشبع به ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد واكتب عليه: **«رحم الله امرءً عرف قدر نفسه»**.

حزب الله

في معنى قوله تعالى: ﴿لا تجدُ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾ (المجادلة: ٢٢).

﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾: أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين.

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة رضي الله عنه، قتل أباه يوم بدر.

﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: نزلت في الصديق أبو بكر رضي الله عنه، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِمْ﴾: نزلت في مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذٍ.

﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: نزلت في عمر رضي الله عنه، قتل قريبًا له يومئذٍ، وفي حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ.

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه وأخاه فهذا ممن كتب الله له السعادة وقررها في قلبه، وزين الإيمان في بصيرته، ولما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾: أي: عباد الله وأهل كرامته.

﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة.

يوم الغضب الأعظم

يوم اشتد فيه غضب الله سبحانه وتعالى وغضب رسوله ﷺ

يوم أُحُد، فيه أُصيب النبي ﷺ من الجراح حتى كسرت رباعية أسنانه، وفيه قُتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، قُتل غدرًا بحربة وحشي بن حرب.

* في (طبقات ابن سعد) عن عمير بن إسحق قال: كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد بسيفين، ويقول: أنا أسد الله، وجعل يُقبل ويُدبر، فبينما هو كذلك إذ عثر عثرة فوقع على ظهره، وبصر به الأسود فزرقه[1] بحربة فقتله.

* وفيها أيضًا أن هند لما لاكت كبده، ولم تستطع أكلها قال ﷺ: «أأكلتُ منها شيئًا؟»، قالوا: لا، قال: «ما كان الله ليدخل شيئًا من حمزة النار»[2].

---

(١) المزارق: رمح قصير أخف من العنزة، وزرقه بالرمح: طعنه.

(٢) أهـ. القسطلاني.

وفي صحيح البخاري أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله».

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه نبي الله ﷺ.

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبما دووي، قال: كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ تَغسِلُهُ، وعليٌّ يسكب الماء بالمجنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدماء إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم، وكُسرت رباعيته يومئذٍ، وجُرح وجهه وكُسرت البيضة على رأسه.

دعوة غضب لله تعالى

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٨-٨٩).

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على عدو الله فرعون وملئه ـ وهم قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ـ، لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا، فبالرغم من استظهار الحق الواضح الجلي، الحسي والمعنوي، والبرهان القطعي من موسى إلا أن فرعون تكبر

عن اتباع هذا الحق وعاند وتمرد واستمر على الباطل، لذا كانت دعوة موسى عليه السلام على فرعون وأتباعه: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾: أي: غيِّرها، فطمس الله على أموالهم، فصارت حجارة، ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: اطبع عليها بالضلالة حتى لا تلين للإيمان. وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه، فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها، كما استجاب لنوح عليه السلام حينما دعا على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦-٢٧)، فأهلك الله جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه وقال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٣).

رابعًا - الغضب والحمية للغيرة

قال ﷺ : «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد، والله أغير مني»[١]، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة، فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة، واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس، وهو مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو صونها. ومن ضعف غضبه ماتت غيرته، مما ينتج عنه الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ (النور: ٢).

* وقال ورّادٌ عن المغيرة: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح، فقال

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

النبي ﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني»[(١)].

* وعن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله»[(٢)].

* وعن أبي سلمة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يَغَارُ وغيرة الله أن يأتي المؤمن بما حرَّم الله»[(٣)].

* وعن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ جلوس فقال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قال: هذا لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبرًا، فبكى عمر وهو في المجلس ثم قال: «أَوَعليك يا رسول الله أغار؟!»[(٤)].

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) رواها البخاري.

* وفي رواية لجابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة ـ أو أتيت الجنة ـ فأبصرت قصراً فقلت: لمن هذا؟، قالوا: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخله، فلم يمنعني إلا علمي بغيرتك»، قال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله بأبي أنت وأمي يا نبي الله أوَعليك أغار؟!»[(١)].

حديث الإفك

جاء في عشر آيات من سورة النور نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين ﷺ حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين واتهموها بأحد أصحاب النبي ﷺ، وهو صفوان، بما قالوه من الكذب والبهت والفرية التي غار الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ

(١) رواه البخاري.

هُوَ خَيْرٌ لَكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ . . . إلى قوله: ﴿واللَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾ (النور: ١١-٢١).

أي: الذين جاؤوا بالكذب والبهت والافتراء جماعة منكم، وكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريبًا حتى نزل القرآن، وقال رسول الله ﷺ: «أبشري ياعائشة، أما الله - عَزَّ وجَلَّ - فقد برأك».

﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾: أي يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ثم تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصتها رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء،

فإن الذي وقع لم يكن ريبة، حيث كان مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكامله يشاهدون ذلك، ولو كان الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾: أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلاً، ولو لم تكن زوجة رسول الله ﷺ، لما كان هينًا، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يُقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله تعالى يغار لهذا، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة من نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة.

دروس مستفادة وعِبَر:

وقصة حديث الإفك ـ والذي أحدث هزة إسلامية ـ مشروحة مفصلاً في كتب التفسير والسيرة، فليرجع إليها

من شاء، فإن فيها عبرًا كثيرة وتوجيهات للأزواج، والآباء وغيرهم من أجل حماية الأسرة من العصبية الجاهلية، والغيرة الباطلة والتي تؤدي بها إلى الانحلال والانهيار.

ولعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ، أراد من حدوث هذه التهمة في زوجة نبيه ـ نفسه ـ كي لا يدهش المسلمون إذا وقعوا في مثل هذه الأزمة وهذا الامتحان، فعليهم أن يلزموا الصبر والهدوء والتحقيق النزيه، والمثل العامي يقول: الناس اتهموا زوجة النبي!، ومعنى ذلك أنهم إذا اتهموا غيرها فليس بعجيب، وينبغي أن نكون على علم دائمًا من أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

والذي يهمنا هنا هو موقف الرسول ﷺ المشرف الرزين لما علم بهذه التهمة، فإنه وإن تألم فقد صبر ولم يتسرع، على الرغم من شيوع الخبر بصورة واسعة بين المسلمين حتى جاء الوحي بتبرئتها، وهكذا فليكن الأزواج.

كما يهمنا أيضًا موقف الصحابي الجليل أبي بكر الصديق ﷺ، فقد كان على الرغم من شدة المحنة والابتلاء في أعز شيء عنده وعند العرب وهو العِرْض، مثال الأب الصبور الحكيم، فلم يأت بشيء من صفات التسرع والغيرة الباطلة التي اتصف بها العرب قبل الإسلام، والتي حدث بسببها فواجع وأهوال، وجرائم تقشعر منها الأبدان، وهكذا فليكن الآباء.

حقًا لقد كان لحادثة الإفك مآسٍ، ولكن كان فيها إلى جانب ذلك العبر والمواعظ والدروس .. حتى الزوجات ليتجنبن مواقف التهم ما استطعن إلى ذلك سبيلاً.

لا عصبية في الإسلام

بعد أن شن الإسلام حملاته على معتقدات الجاهلية وأوهامها، لما لها من خطر على العقل والخلق والسلوك، شن غارات مثلها على تقاليد الجاهلية التي كانت تقوم على العصبية والكبرياء والفخر وتمجيد القبيلة، وكان أول ما

صنعه الإسلام في ذلك أن أهال التراب على العصبية بكل صورها، وحرم على المسلمين أن يحيوا أي نزعة من نزعاتها أو يدعوا إليها، وأعلن النبي ﷺ براءته ممن يفعل ذلك، قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[1]، فلا امتياز للون معين من البشرة، ولا لجنس خاص من الناس، ولا لرقعة معينة من الأرض، ولا يحل لمسلم أن يتعصب للون على لون، ولا لقوم على قوم، ولا لإقليم على إقليم، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينتصر لقومه في الحق والباطل، والعدل والجور.

* عن واثلة بن الأسقع قال: قلت: يا رسول الله، ما العصبية؟، قال: «أن تعين قومك على الظلم»[2].

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال ـ عزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (المائدة: ٨)، أي: كونوا قوامين بالحق لله ـ عزَّ وجَلَّ ـ، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا: ﴿ شهداء بالقسط ﴾: أي: بالعدل، لا بالجور.

* وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: «أكل ولدك نحلت مثله؟»، قال: لا، فقال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»، قال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة.

وقوله: ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ﴾: أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد؛ صديقًا كان أو عدوًا،

ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه.

وعدل النبي ﷺ مفهوم هذه الكلمة التي كانت شائعة في الجاهلية، ومأخوذة على ظاهرها: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ولما قالها ﷺ لأصحابه بعد أن رسخ في قلوبهم الإيمان ـ مريدًا بها معنى آخر ـ عجبوا ودهشوا، وقالوا يا رسول الله: هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟، قال: «تمنعه من الظلم فذلك نصرك له»[1].

ومن هنا نعلم أن كل دعوة بين المسلمين إلى عصبية إقليمية أو إلى عصبية عنصرية، إنما هي دعوة جاهلية يبرأ منها الإسلام ورسوله وكتابه، فالإسلام لا يعترف بأي ولاء لغير عقيدته، ولا بأي رابطة غير أخوته، ولا بأي فواصل تميز بين الناس غير الإيمان والكفر، فالكافر المعادي للإسلام عدو للمسلم، ولو كان جاره في وطنه، أو أحد بني قومه،

---

(١) رواه البخاري.

بل ولو كان أخاه لأبيه وأمه، قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ (التوبة: ٢٣).

ولقد كانت لأحد أدباء مصر المشهورين مقولة يعتز بها كنا نتمنى أن يتراجع عنها قبل رحيله ـ كان يقول: نحن نعتز بفرعونيتنا ومصريتنا أكثر من اعتزازنا بعروبتنا وإسلامنا!!، وهي عصبية ما أُريد بها وجه الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بل هي من أمواج الفلسفات التي تضع بحملها على شواطئ الكفر والإلحاد.

لا اعتداد بالأنساب والألوان

روى البخاري أن أبا ذر وبلالاً الحبشي رضي الله عنهما، ـ وكلاهما من السابقين الأولين ـ تغاضبا وتسابا، وفي ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال: يا ابن السوداء!، فشكاه بلال إلى

النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لأبي ذر: «أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية!»[١].

* وعن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»[٢]، وقال ﷺ: «كلكم بنوا آدم، وآدم خُلِقَ من تراب»[٣].

وبهذا حرَّم الإسلام على المسلم أن يسير مع هوى الجاهلية في التفاخر بالأنساب والأحساب، والتعاظم بالآباء والأجداد، وقول بعضهم لبعض: أنا ابن فلان، وأنا من نسل كذا، وأنت من سلالة كذا، أنا من البيض وأنت من السود، أنا عربي وأنت أعجمي.

وما قيمة الأنساب والسلالات إذا كان الناس جميعًا ينتمون إلى أصل واحد؟، ولو فرض أن للأنساب قيمة فما فضل الإنسان أو ذنبه إن ولد من هذا الأب أو ذاك؟، يقول

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البزار.

الرسول ﷺ : «إن أنسابكم هذه ليست بمسبَّة على أحد، كلكم بنوا آدم ليس لأحد على أحد فضل، إلا بدين أو تقوى»[١]، وقال: «الناس لآدم وحواء، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٢].

وصب النبي ﷺ جام غضبه على المتفاخرين بالآباء والأجداد في عبارات صارمة قارعة، فقال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعل الذي يُدهْدهُ الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس بنوا آدم وآدم خُلق من تراب»[٣].

ـ «والجعل»: دويبة أرضية، «ويدهده»: يدحرج.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه ابن جرير.
(٣) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن، والبيهقي بإسناد حسن.

وفي حجة الوداع حيث الآلاف يستمعون في أوسط أيام التشريق في الشهر الحرام والبلد الحرام، ألقى النبي ﷺ خطبة الوداع، فكان من المبادئ التي أعلنها: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)»[١].

وبينما عمر بن الخطاب جالس، إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين: هذا مقام العائذ بك، فقال عمر: لقد عذت بمجير، فما شأنك؟، قال: سابقت على فرس ابنًا لعمرو بن العاص فسبقته، فجعل يقمعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عَمْرًا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانطلقت منه فهذا لحين جئتك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وهو أمير على مصر: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك

(١) رواه البيهقي.

فلان، وقال للمصري: أقم حتى يجيء، فقدم عمرو فشهد الحج، فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصري فرمى إليه عمر بالدرة وضربه فلم ينزع حتى أحب الحاضرون أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين، فقال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، قال: ضعها على صلعة عمرو، قال: يا أمير المؤمنين قد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع، ثم قال لعمرو: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟![1].

(١) هكذا في «منهاج المسلم».